عبد الرحمان حسنيوي

ظل باندورا

رواية إلكترونية

سنة النشر: 2025

الهامش BLOGS

عبد الرحمان حسنيوي

ظل باندورا

رواية الكترونية

مدونة الهامش الثقافية

2025

تنويه: هذه الرواية " ظل باندورا" من وحي الخيال، ولا تمت للواقع بأي صلة، وأي تشابه بين شخصيات الرواية وبين الواقع، هو من وحي خيال الكاتب.

جميع الحقوق محفوظة © 2025

أهدي هذا العمل المتواضع إلى:

روحي إمي وجدتي..

أبي راعي حلمي..

كل عائلتي وأصدقائي وتلامذتي..

كل وفي للعلم والمعرفة..

الفهرس

مقدمة لا بد منها 0

دوامة الصباح 2

المصنع البارد 5

وحش العملات 8

المدينة المتاهة 11

وجوه في الظل..... 14

حوار مع الفيلسوف..... 17

خيانة الأمل..... 21

الوجه الآخر 25

ظل الأمل 29

خاتمة لا بد منها..... 32

"الحياة عبثية، ولكن يمكننا أن نعطيها معنى من خلال التحدي والتمرد على هذا العبث."

ألبير كامو

مقدمة لا بد منها

في نظام تتداخل فيه خيوط الواقع مع أحلام البشر وأوهامهم، يصبح البحث عن الأمل أكثر صعوبة.. لكن الأمل لا يأتي دائمًا كما نتوقعه، ولا يأتي في شكل ضوء ساطع يعم الظلام، بل في الكثير من الأحيان يتجسد في الظل، في الأماكن التي لا نلتفت إليها عادة، يختبئ خلف الزوايا المظلمة للحياة اليومية، بعيدًا عن أعيننا، حتى نكاد ننساه.

قد نظن أن الأمل هو ذلك النور الذي يسطع في الأفق في لحظات الفراغ أو اليأس، ولكن الحقيقة قد تكون أكثر تعقيدًا، فالأمل لا يرتبط فقط باللحظات التي نسعى فيها لتحقيق أهدافنا، بل في القدرة على الاستمرار رغم الألم، في العيش بالرغم من الفوضى، في المقاومة التي تحملنا على المضي قدمًا دون أن نكون قادرين على رؤية النهاية، فهذا النوع من الأمل هو الذي يصاحبنا في لحظات السكون، في الظلال التي نخشى الاقتراب منها، ولكنه أيضًا هو ما يظل حافزًا لنا للبقاء.

في هذه الرواية، سنسير معًا في درب مليء بالتساؤلات، حيث لا نجد دائمًا الإجابات الواضحة، وسننغمس في الحياة المليئة بالرماد، بالآمال الضائعة، وبالوجوه التي تختبئ خلف الأقنعة، وتذكر: ستجد في هذه الصفحات ظل الأمل، ذلك الظل الذي لا يُدركه الكثيرون، لكنه كان دائمًا هناك، ينتظرنا لنتعرف عليه.

دوامة الصباح

"في كل صباح، كان ينهض من السرير كما لو أن الزمن نفسه لم يتحرك.. كانت المدينة تستمر في الدوران حول نفسها، وكأنها آلة لا تتوقف.. لكن سامر في قلب هذه الدوامة، كان يحاول أن يجد مكانًا للصمت."

استيقظ سامر قبل شروق الشمس بدقائق، وكأن جسده قد أصبح منبهًا متعبًا يوقظه دائمًا على نفس الوتيرة، النوافذ المهترئة لم تمنع الرياح الباردة من التسلل إلى الغرفة. وقف ببطء محاولًا إزاحة غبار النوم عن عينيه، لكنه أحس أن الغبار كان أثقل من مجرد بقايا ليل؛ كان غبار الزمن الذي التصق بحياته منذ ولدته.

جلس على سريره الذي كان أقرب لخشبة مهترئة مغطاة ببطانية باهتة، وأخذ ينظر إلى الجدران المتشققة، تشققاتها تشبه خريطة مدينة غارقة في فوضى لا تنتهي، تمتم لنفسه بابتسامة مريرة: **"ربما هذه الجدران تفهمني أكثر من البشر."**

في الخارج، كانت الحياة تبدأ ببطء كآلة صماء، تعمل بلا روح، والحي العشوائي الذي يقطنه يعج بأصوات خطوات ثقيلة وأبواب تصفق ونداءات الباعة المتجولين...، كل شيء بدا وكأنه مشهد من مسرحية عبثية، حيث الجميع يشارك في العرض، لكن لا أحد يفهم النص.

خرج سامر من منزله، وحين وطأت قدمه الشارع، أدرك مرة أخرى عبثية رحلته اليومية، فقد كان عليه أن يمر بشوارع ضيقة، مليئة بالقمامة والوحل، حيث كان

كل شيء حوله يصرخ بالفقر والقهر واللامبالاة، والأطفال يلعبون بجوار مكب نفايات، والرجال يدخنون في زوايا الأزقة وكأنهم ينتظرون شيئًا لن يأتي أبدًا.

فكر سامر بينما كان يسير نحو المصنع: **"هذه ليست حياة، هذه محاكاة رديئة لها"**، كل خطوة كان يشعر بها وكأنها تكرار لألف خطوة سبقتها، وكأن الزمن توقف عند لحظة واحدة وأعاد تدويرها بلا رحمة.

في الطريق، لفت نظره إعلان كبير يغطي جدارًا متصدعًا، الإعلان كان لشركة عالمية تتحدث عن **"الحلم"**، تظهر فيه عائلة مبتسمة في منزل أنيق، ضحك سامر وهو ينظر لها بتهكم: **"إنها نكتة السماء السوداء على من يعيشون تحتها، فالحلم الوحيد هنا هو البقاء حيًا ليوم آخر."**

عند وصوله إلى محطة الحافلات، كانت الحافلة مكتظة بشكل لا يُطاق، الصعود إليها بدا وكأنه معركة يومية تتكرر باستمرار في مشهد روتيني.

صعد سامر إلى هذه الحافلة المهترئة والتي تنبعث منه رائحة البؤس والقهر، ووجد نفسه محشورًا بين أجساد متعبة تشارك نفس العبوس الصامت، حاول التفكير في شيء آخر، لكنه كان يسمع صوتًا داخليًا يقول: **"أنت قطعة من آلة كبيرة، وكلما تحركت أنت، زادت سرعة دورانها، ولكن هل أنت أكثر من مجرد ترس في هذه الآلة؟."**

عندما اقترب من المصنع، ارتسمت أمامه صورة المبنى الرمادي الضخم بدا وكأنه وحش خرساني يبتلع كل من يقترب منه، العمال يدخلون برؤوس منحنية ووجوه خالية من أي ملامح، وكأن أرواحهم قد استُنزفت منذ زمن بعيد.

توقف سامر للحظة قبل أن يعبر البوابة، نظر إلى السماء التي كانت ملبدة بسحب رمادية، تمتم: **"هل للسماء أيضًا نصيب من هذه العبثية؟"**، ثم تنهد ودخل، مستعدًا ليوم آخر في طاحونة لا نهاية لها.

في داخله، كان هناك إحساس غريب يتنامى، أحس بأن هذه الدوامة ليست مجرد صدفة، بل نظام كامل مصمم لسحق كل شيء: **الأحلام، الإنسانية، وحتى الزمن نفسه.**

المصنع البارد

"تحت الأنوار الفلورية الباردة، كان الجميع يسيرون كأنهم أجزاء من آلة ضخمة بلا أسماء ولا وجوه حقيقية، فقط أيدي تُنفذ أوامر لا تعرف سببها.. وكان المصنع هو المكان الذي تموت فيه الأحلام، وتولد فيه الأسئلة غير المجاب عنها."

عندما عبر سامر البوابة، أحس كأنه يدخل إلى عالم موازٍ، عالم يتسم بالصمت الكئيب والبرد القاسي، فالمبنى الرمادي بدا وكأنه كائن جامد ينبض بالموت بشكل مخيف، جدرانه الضخمة كانت تشع شعورًا بالثقل، كأنها تحمل أسرار من سبقوه من العمال الذين أُكلوا هنا وخرجوا فارغين.

داخل المصنع، كانت الآلات تصدر ضجيجًا صاخبًا، لكنها بدت وكأنها تتحدث بلغة لا يفهمها إلا من فقدوا قدرتهم على الشكوى. ضوء النيون الباهت ينعكس على وجوه العمال، محوّلًا ملامحهم إلى أقنعة جامدة، وكأنهم شخصيات من لوحة مأساوية.

وقف سامر أمام خط الإنتاج، وهو عبارة عن حزام طويل يتحرك بوتيرة ثابتة لا تعرف التوقف، يحمل صناديق فارغة تُملأ بمنتجات المصنع.. مهمته بسيطة حد السخرية: وضع الأغطية على الصناديق. نفس الحركة، نفس الإيقاع، نفس الملل الذي يستهلك عقله مع كل ثانية تمر.

فكر سامر وهو يضع الغطاء على الصندوق الأول: **"هذا ليس عملًا، إنه ترويض"**، مع كل غطاء، أحس أن جزءًا من روحه ينفصل عنه، يسقط على الحزام، ويتلاشى في أحشاء المصنع.

نظر من حوله إلى زملائه، الذين كانوا يقفون في صمت، يتبادلون النظرات الخالية من الحياة، لم يعد يرى فيهم بشرًا، بل امتدادًا للآلات نفسها. كان أحدهم رجل مسن يتحرك بإيقاع مثالي كأنه جزء من الماكينة، ويداه تعملان بلا توقف، كأن جسده فقد إرادته وأصبح مجرد أداة.

تساءل سامر بينما كان يشعر بشيء غريب يتصاعد بداخله: **"هل هذه هي النهاية؟ أن نصبح امتدادًا لهذه الآلات؟"**، لوهلة خُيل له أن الآلات تتنفس، أن أصواتها ليست مجرد ضجيج، بل أنين متواصل يروي قصص الأرواح التي سُحقت هنا.

عند استراحة قصيرة، جلس سامر بجانب زميل شاب، بدا وكأنه في أوائل العشرينات، لكنه كان يحمل وجهًا أكبر من عمره بسنوات، قال له الشاب بصوت خافت :

"تعرف، أحيانًا أفكر أن هذه الآلات ستأكلنا يومًا ما، وسنصبح أجزاءً منها ولن يلاحظ أحد الفرق."

ضحك سامر بمرارة وقال:

"ربما نحن بالفعل أجزاء منها، فقط لا نعلم."

عندما عادت الآلات للعمل، غاص سامر في دوامة جديدة من الحركة الرتيبة والروتينية القاتلة، لكن عقله بدأ ينسج تخيلات غريبة: خُيل إليه أن الحزام ينمو

أطرافًا كالأفعى، يلتف حول العمال ويبتلعهم واحدًا تلو الآخر، ورأى الآلات وهي تتحول إلى وحوش معدنية، تطاردهم في أرجاء المصنع.

حاول سامر طرد هذه الصور من عقله، لكنه أدرك أنها لم تكن مجرد تخيلات، بل كانت الحقيقة المجازية التي يعشها العمال كل يوم: الجميع هنا يبتلعهم المصنع، يمضغهم ببطء، ويعيدهم إلى منازلهم كأشباح فارغة تنتظر العودة إلى المصنع في اليوم التالي.

عندما انتهى يوم العمل أخيرًا، خرج سامر من البوابة مع زملائه، لكنه أحس أن شيئًا ما قد تغير، وقد كان البرد أكثر قسوة، وضوء النهار بدا شاحبًا كما لو أن الشمس نفسها فقدت شجاعتها.

نظر إلى المصنع من الخارج، تمتم لنفسه:

"ليس المصنع فقط هو البارد، العالم بأكمله يتجمد تحت وطأة هذا النظام الاستغلالي."

ثم تابع طريقه إلى منزله، مثقلًا بأفكاره، متسائلًا: **هل سيأتي يوم تدفأ فيه أرواح العمال من جديد؟**

وحش العملات

"كانت العملات تتنقل من يد إلى يد، كما لو أن في كل واحدة منها وعدًا بحياة أفضل.. لكن سامركان يعلم أن هذه الوعود كانت فقط سراب، يتلاشى كلما اقترب منه."

كانت الليلة مختلفة لم يستطع سامر النوم رغم التعب الذي أثقل جسده، ألقى بنفسه على السرير محاولًا الهروب إلى عالم الأحلام، لكن شيئًا غريبًا كان ينتظره.

نام بصعوبة شديدة، وبدأ الحلم بشكل مألوف: سامر يسير وحيدًا في شارع مظلم، ليس فيه سوى أعمدة إنارة تصدر أضواء باهتة، وفجأة تغير كل شيء، الأرض تحت قدميه بدأت تتحول إلى بحر من العملات المعدنية اللامعة، يتناثر بريقها كأنها نجوم تسقط من السماء.

نظر سامر حوله، وإذا بشيء ضخم يظهر من الظلال، كان وحشًا هائل الحجم وجسده مصنوع بالكامل من العملات المعدنية، وجهه بلا ملامح، مجرد فراغ عميق، لكن صوته كان كافيًا ليبث الرعب في قلب سامر.

سأله سامر بصوت مرتعش: **"من أنت؟."**

أجاب الوحش بصوت معدني ثقيل:

"أنا سيد هذا العالم، أنا العملة التي لا تترك أحدًا دون أن تستهلكه."

حاول سامر أن يبتعد، لكن الأرض من حوله أصبحت لزجة، وكأن العملات تحاول ابتلاعه، تابع الوحش حديثه، مقتربًا منه ببطء:

"أنا القوة التي تحكم حياتك، التي تجعلك تعمل، تجعلك تجوع، وتجعلك تحلم بشيء لن تحصل عليه أبدًا."

صرخ سامر فجأة، محاولًا مقاومة الخوف: **"لكننا نحن من نصنعك! نحن من نعمل ونكدح لنخلق هذه العملات، من أين تأتي بكل هذه القوة؟"**

ضحك الوحش ضحكة كادت تُسقط سامر أرضًا، وقال بصوت مرتفع:

"هذا صحيح، أنتم من تصنعونني، لكنكم أيضًا من تجعلونني سيدكم، و أنتم من اخترتم أن تصبح حياتكم مجرد أرقام.. أرقام في حسابات بنكية، وأرقام على أوراق تدعي أنها مال... أنا لست قوة طبيعية؛ أنا وهمكم الذي أصبح أكثر و اقعية منكم."

وقف سامر في مواجهة الوحش، يحاول استيعاب ما يسمعه، وفجأة بدأ الوحش يقترب منه أكثر، وحين وصل على بعد خطوة واحدة، فتح فمه الخالي من الملامح، ليظهر داخله دوامة هائلة تمتص كل شيء من حولها.

"تعال يا سامر، انضم إلي، وكن جزءًا مني، كما فعل الجميع من قبلك.. هنا لن تشعر بالجوع أو الألم، فقط ستفقد ما تبقى من إنسانيتك."

شعر سامر بجسده يُسحب نحو الدوامة، لكنه قاوم بشدة، صرخ بأعلى صوته:

أنا لست ملكك! أنا أكثر من مجرد رقم!

لكن صوته تلاشى داخل العاصفة المعدنية، وقبل أن يبتلعه الوحش بالكامل، رأى وجوهًا داخل الدوامة، وجوه زملائه في المصنع، وجوه أطفال الحي، وحتى وجهه الخاص.

استيقظ سامر فجأة، يتصبب عرقًا، وقلبه ينبض بسرعة جنونية، ونظر من حوله محاولًا التأكد من أنه عاد إلى واقعه وغرفته وسريره، لكن الحلم ترك أثرًا عميقًا داخله، فقد كان يعلم أن الوحش لم يكن مجرد كابوس ينتهي مع الاستيقاظ من النوم، بل إن العملة "المال" ليست فقط وسيلة، إنها سلاح وهي الوحش الذي خلقناه جميعاً، ونغذيه كل يوم من حياتنا ووقتنا.

نهض سامر من سريره، نظر إلى نافذته التي تطل على المدينة النائمة، أحس في تلك اللحظة أن كل ضوء في المدينة كان ينبض بريقًا معدنيًا باردًا.

المدينة المتاهة

"كل زاوية كانت تفضي إلى زاوية أخرى، وكل شارع كان يخفي خلفه شوارع لا نهاية لها، وكان سامر يتنقل في المدينة كما لو كان يبحث عن نفسه بين آلاف الوجوه الضائعة."

كان الصباح مختلفًا أو هكذا بدا لسامر، عندما خرج من منزله شعر أن المدينة قد تغيرت، وكأنها فقدت ملامحها المألوفة.. الأزقة التي اعتاد أن يسلكها بدت أطول وأكثر التواءً، والمباني تحولت إلى كتل إسمنتية ضخمة بلا نوافذ ولا أبواب.. الشوارع كانت تعج بالناس، لكنهم يتحركون بلا اتجاه واضح وجوههم خاوية، عيونهم زائغة، وكأنهم يبحثون عن شيء لا يعرفون ماهيته، حاول سامر أن يسأل أحدهم:

"إلى أين تذهبون؟"

لكنه لم يحصل على إجابة، الرجل الذي سأله واصل سيره كأن سامر غير مرئي كالشبح.

بدأ سامر يسير مع الجموع، لكنه سرعان ما أدرك أن الشوارع لا تقوده إلى أي مكان مألوف، كلما انعطف وجد نفسه في نفس النقطة التي بدأ منها، وكأن المدينة بأكملها تحولت إلى متاهة لا مخرج منها.

لاحظ لوحات إعلانية ضخمة على جانبي الشوارع، كلها تحمل نفس الرسالة: **"استمر في العمل.. استمر في البحث.. النجاح ينتظرك في النهاية."**

لكن أين هذه النهاية؟

بينما كان يحاول فهم ما يجري، سمع صوتًا من بعيد، صوت أشبه بمذيع أخبار:

"مرحبًا بك في المدينة المتاهة ! هنا حيث الجميع يركضون، والجميع يبحثون، ولا أحد يصل.. ابقَ معنا ولا تتوقف أبدًا، فالتوقف يعني النهاية."

صوت المذيع كان يأتي من مكبرات صوت معلقة على أعمدة الإنارة، والكلمات كانت واضحة، لكنها مليئة بالسخرية السوداء الخفية.

تمتم سامر: **"مدينة المتاهة؟ هل هذه مزحة؟."**

واصل السير، محاولًا العثور على مخرج مرَّ بمناطق مليئة بالأسواق، لكنها لم تكن أسواقًا حقيقية، فالبضائع كانت تُعرض خلف زجاج لا يمكن كسره، والزبائن يتسابقون للشراء، لكنهم لا يستطيعون لمس أي شيء.

رأى رجالًا ونساءً يدخلون مبانٍ ضخمة مكتوب عليها: **"مركز الأمل"**، ولكن عندما اقترب من أحدها، وجد أن الأبواب تؤدي إلى أماكن مظلمة لا يمكن رؤية نهايتها.

قال سامر بصوت مرتفع: **"هذه ليست مدينة، إنها فخ!"**

في وسط المتاهة، وجد سامر ساحة ضخمة مليئة بشاشات عملاقة تعرض وجوهًا مبتسمة تتحدث عن الحرية والنجاح...، الكلمات كانت مغرية، لكنها لم تكن تحمل أي معنى في ظل نظام يسحق كل شيء بداخله.

تقدم رجل عجوز نحو سامر، وجهه كان شاحبًا وعيناه غارقتين في الظلام، وقال له بصوت متعب:

"لا تحاول الخروج... لا أحد يخرج من هنا، نحن نعيش لنبحث عن أمل لن ولم نجده أبدا."

لكن سامر لم يستسلم، وبدأ يركض في الشوارع، ينعطف يمينًا ويسارًا، محاولًا تحدي قوانين هذه المدينة العبثية، وفجأة، وجد نفسه أمام جدار ضخم عليه اقتباس غريب:

"أنت جزء من المتاهة، ولا يمكنك الهروب لأنك أنت من صنعها."

كان هذا الاقتباس كطعنة في قلبه، وتمتم في نفسه: **"هل نحن من صنعنا هذا الجحيم؟ هل نحن من بنينا هذه المتاهة لنضيع فيها بأنفسنا؟"**

جلس سامر على الأرض، منهكًا، ونظر حوله إلى الجموع التي ما زالت تركض، إلى اللوحات الإعلانية التي تلمع، إلى الأصوات التي تحث الجميع على الاستمرار.

وفي أعماقه، أدرك الحقيقة: **المدينة المتاهة ليست مكانًا حقيقيًا إنها رمز لعالمنا، لنظام يجعلنا نركض بلا توقف، نبحث عن شيء لا وجود له.**

وجوه في الظل

"في الظلال، حيث لا يجرؤ الضوء على العبور، اختبأت الوجوه الحقيقية.. كان سامر يراها، يلمسها بيديه، بينما يراها الآخرون مجرد أطياف غير واضحة في الزمان والمكان."

في زاوية مظلمة من المدينة، حيث تتقاطع الشوارع والأزقة الضيقة وتلتف المباني حول بعضها البعض.. كان سامر يتنقل بخطوات هادئة، يراقب الوجوه الخفية التي تظهر في الظلال، لم يكن الصوت مرتفعًا، بل كان هناك صمت ثقيل يخيم على كل شيء، وكأن المدينة نفسها تتنفس من خلال فجوات ضيقة بين الجدران.

لم يكن يراهم جميعًا ولكن كان يشعر بوجودهم، وكانت هذه الوجوه تظهر وتختفي كما لو كانت تراقب من بعيد، مستترة في الزوايا المظلمة أو خلف النوافذ المغلقة.. لم تكن هناك تعبيرات على وجوههم، فقط فراغ قاتل بين العيون التي تحدق في الفراغ، وسامر لا يعرف إن كانوا أحياء أم مجرد أشباح، لكنهم كانوا هناك، في الظل، ينتظرون شيئًا ما.

همس سامر لنفسه وهو يحدق في وجه امرأة كانت تختبئ وراء نافذة صغيرة مغطاة بالغبار: **"من هؤلاء؟"** عيونها كانت عميقة، كأنها تحمل أسرارًا لا يستطيع عقل سامر استيعابها.

أبعد عينيه عن النافذة، لكن الفكرة كانت تطارده: الوجوه في الظل: **هل هم مثلنا؟ أم أنهم شيء آخر؟ شيء عالق بين الحياة والموت؟** كانوا يتجمعون في الأماكن التي تبتعد عن الأنظار، في الأماكن التي لا يجرؤ أحد على النظر إليها.

رغم الظلام، أحس بشيء غريب كأنهم ينادون عليه، كأنهم يريدون منه أن ينضم إليهم في الظل.

"لا تقترب، هذا ليس مكانك... لن تجد الإجابات هنا!"

كانت تلك هي الكلمات التي تردد في ذهنه، وكان الصوت غريبًا، لم يكن صوت شخص واحد، بل صوت المدينة نفسها، محذرة إياه من كشف الأسرار المخفية بين هذه الجدران.

واصل سامر السير، وكانت كل خطوة يخطوها تزعج هذا الصمت المخيف، وكان يعرف أن الجدران المظلمة حوله تخفي الكثير.. لكنها كانت تخفي أيضًا أجوبة لا يريد أن يكتشفها، فكلما اقترب من الظلال، زادت الوجوه وتتبعته العيون.. وكان يراها من بعيد، تلحقه كما لو كانوا يراقبون تحركاته عن كثب.

في زاوية أخرى من المدينة، وجد نفسه أمام بوابة قديمة، مهدمّة لكنها لا تزال تقاوم الزمن، وقف لثواني يحدق فيها وقرر الاقتراب منها، كانت كأنها دعوة مفتوحة للدخول إلى عالم آخر.

عندما اقترب أكثر، ارتسمت أمامه عدة وجوه، وجوه ممزقة بين الفترات الزمنية، وجوه تذكره بوجوه كانت له في الماضي، وجوه من حياته التي نسيها أو تناساها،

وتساءل قائلا: **هل كانوا جزءًا من ماضيه؟ هل هم حقًا من الماضي أم مجرد صور عائمة في الظلام؟**

في تلك اللحظة، أحس بشيء يتسلل في داخله، إحساس بالخوف لا يستطيع تفسيره، وكأن هذه الوجوه كانت تمثل كل شيء خسره في حياته، تمثل كل قرار اتخذته يداه في اللحظات التي ظن فيها أنه سيصنع فرقًا، لكن الفرق كان فقط وهم في النهاية.

فجأة، شعر بشيء يهمس في أذنه، ولكن الصوت كان ضعيفًا، ضبابيًا:

"لا تدعهم يأخذونك، الهروب هو الخيار الوحيد."

ركض سامر دون أن يتردد، وهو يحاول الهروب من الوجوه التي كانت تتناثر في الظلال، لكن مهما جَرَى كان يشعر بأنها تلاحقه، تقترب منه أكثر وأكثر، فقد كانوا جزءًا منه، جزءًا من الذاكرة التي لا يستطيع الهروب منها.

وصل إلى نقطةٍ ما في المدينة حيث لا شيء يحيط به سوى الظلام، أوقف نفسه وأغمض عينيه، مدركًا أنه لا يمكنه الهروب.. ففي النهاية الوجوه التي اختبأت في الظل لم تكن إلا مرآة لنفسه، صورته التي اختبأ منها طيلة حياته.

"أنا جزء منهم... كلنا جزء من هذا الظلام الحالك".

حوار مع الفيلسوف

"قال الفيلسوف : 'نحن لا نبحث عن الأمل كما نبحث عن شيء مادي، الأمل هو الكلمة التي نرددها لنخفف عن أنفسنا عبء الحياة الكبير.'"

في زاوية هادئة من المدينة، بعيدًا عن ضجيج الشوارع وصخب الحياة اليومية، كان سامر يجلس على مقعد قديم في حديقة مهجورة يحاول أن يجد معنى لوجوده في هذا العالم الذي يبدو بلا اتجاه.. بينما هو غارق في أفكاره جاءه رجل مسن غط الشيب لحيته الطويلة، يرتدي معطفًا داكنًا وعيناه عميقتان، وكأنهما تحويان أسرارًا لا نهاية لها.

اقترب الرجل منه بابتسامة هادئة وقال:

"أنت تجلس في مكانٍ غريب، لا تبحث عن معنى لأنه لا يوجد."

رفع سامر رأسه، وتفاجأ بوجود الرجل الذي لم يراه من قبل، شعر بشيء من الفضول والاستغراب وأجاب:

"هل تعني أن الحياة بلا معنى؟ أن كل ما نعيشه ليس سوى عبث؟"

ابتسم الرجل، وجلس بجانب سامر على المقعد، ثم أغمض عينيه للثواني، وكأنما يسترجع أفكارًا بعيدة.. ثم قال بصوت هادئ:

"كل شيء له معنى، ولكن ليس بالمعنى الذي تظن، فالحياة ليست شيئًا ثابتًا، بل هي سلسلة من اللحظات التي تتداخل، تتقاطع، ثم تختفي، لأننا نحن من نصنع المعنى، لكننا ننسى ذلك في زحمة الحياة."

نظر سامر إلى العجوز الفيلسوف بشيء من التردد، ثم قال:

"لكن، كيف يمكن أن نعيش في عالم مليء بالظلم واللامبالاة؟ كيف يمكن أن نجد المعنى في عالم لا يهتم سوى بالمال والسلطة؟"

رد الرجل بهدوء:

"الظلم، اللامبالاة، المال، السلطة... كلها أدوات في يد من يظن أنه يمتلكها، ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء لا يمتلكون شيئًا، لأنهم يظنون أن الحياة هي لعبة يمكن أن تُلعب بالقوة، لكن الحياة ليست لعبة! الحياة هي اختيار، وكل لحظة منها كذلك هي اختيار."

تساءل سامر: **"اختيار؟ كيف يمكننا أن نختار في عالم تحكمه القوى الكبرى؟ هل نملك فعلاً القدرة على الاختيار؟"**

قال الرجل وهو يراقب السماء الملبدة بالغيوم:

"الاختيار ليس دائمًا في أيدينا، فأحيانًا نكون عالقين في دوامة من الخيارات التي لا نراها. لكن هناك دائمًا لحظات صغيرة يمكننا أن نختار فيها، وربما لا تكون اختياراتنا قادرة على تغيير العالم. لكننا نختار كيف نراه: هل نرى العتمة أم النور في كل شيء؟"

نظر سامر إلى يديه، وكأنما يحاول أن يجد شيئًا في راحتيها، ثم قال:

"أنا أرى العتمة، فالعالم مليء بالظلام، والناس يركضون وراء أشياء لا تمنحهم السعادة.. لكن هل يمكننا حقًا أن نغيره؟"

أجابه الرجل وهو ينظر إلى عيونه الغارقة في الظلام:

"التغيير.. ليس في تغيير العالم بشكل مباشر، بل في تغيير كيفية رؤيتنا له. فإذا كنت ترى الظلام فقط ستظل عالقًا فيه، لكن إذا حاولت أن تجد النور في الظلال، ستكتشف شيئًا جديدًا.. والحياة يا عزيزي ليست ما نعتقد أنها عليه، إنها ما نراه وما نفعله فيها."

قال سامر، وهو يشعر بشيء من الارتياح:

"إذا كانت الحياة مجرد رؤية واختيار، فهل يعني هذا أننا نملك القوة لتغيير و اقعنا؟"

ابتسم الرجل وقال:

"نعم، بالطبع ليس عن طريق القوة المادية أو المال، بل عن طريق أفكارنا عن الحرية. فالحرية لا تأتي من الخارج، بل من الداخل، ومن القدرة على تغييروجهات نظرنا، ومن البحث المستمرعن الحكمة، فلا تدع المدينة وأصواتها تسيطرعليك، بل كن أنت من يحدد كيف ترى الحياة."

أحس سامر بشيء من الهدوء يغمره، فالحديث مع هذا الرجل الغريب قد أزال بعض الغموض الذي كان يعتصر قلبه، في النهاية قال العجوز الفيلسوف وهو يقف ليغادر:

"تذكر يا سامر أن الحياة ليست فقط سلسلة من الأحداث العابرة، بل هي رحلة لا بد أن نختار كيف نمشي فيها.. لذلك لا تخف من الظلام، فهو جزء من النور."

ومع ذلك، غاب الرجل الغريب في الظلام كما جاء، تاركًا سامر وحيدًا في الحديقة.. لكن ذهنه الآن كان أكثر وضوحًا وفهما، ربما لن نغير العالم بأسره، لكننا على الأقل، قادرون على تغيير رؤيتنا له.

خيانة الأمل

"كان الأمل في قلبه مثل جرح لا يندمل، وكان يعلم أن كل خطوة يخطوها كانت تخون ذلك الأمل الذي طالما حلم به.. لكن في أعماقه كان يعرف أن الخيانة لا تعني النهاية بل بداية جديدة."

كان اليوم كسائر الأيام، لكن قلب سامر كان يحمل شيئًا ثقيلًا، كأن الأمل الذي اعتقد أنه يملكه قد انهار فجأة في الزمان الذي بات الجميع يركضون فيه خلف أهداف بلا معنى، بدأ يحس وكأن تلك الوعود التي طالما بشر بها نفسه أصبحت مجرد أكاذيب مزخرفة.

في ذلك الصباح، عندما خرج من منزله، كان الشارع يبدو كما هو دائمًا: مزدحمًا، ضبابيًا، مكبلًا بالصمت الذي يخنق كل شيء.. مرَّ بجانب الباعة المتجولين حيث كانت الحاويات المليئة بالقمامة تملأ الأرض، لكن ما لفت نظره أكثر كان الوجوه التي ترتسم عليها علامات الإحباط والخوف والحزن، وكأنهم جميعًا في حالة انتظار لشيء غير معروف.

كل شيء في المدينة يبدو كما لو أنه يسير في دائرة مغلقة، وسامر لم يعد يشعر بأي نوع من الأمل في تلك المدينة التي تأكل نفسها.. بدأ يفكر في الوعود التي كان يصدقها في الماضي، تلك الوعود التي ملأت نفسه بالحماس والطموح: أن المستقبل سيكون أفضل، أن الحرية قادمة، أن التغيير ممكن.

لكن الآن، كان يرى أن كل ما كان يفعله هو السير في دوامة، دوامة لا تنتهي، حيث يصبح الأمل كسراب يبتعد كلما اقترب منه.. أحس وكأن خيانة كبيرة قد حدثت في حياته، خيانة ليس من الآخرين، بل من نفسه ومما كان يعتقده ذات يوم.

توقف فجأة أمام شاشة كبيرة تروج لمنتج جديد مكتوب فيها بخط عريض وكبير: **"مستقبل أفضل يبدأ الآن!"**. لكن سامر شعر بغصة في قلبه، وتساءل مع نفسه: **هل كانت هذه هي الحقيقة التي كان يسعى إليها؟ هل كان هذا هو التغيير الذي طالما حلم به؟**

لم يكن الأمر مقتصرًا على الشعار أو الكلمات الكبيرة، بل كان يتعلق بشيء أعمق، بشيء داخل قلبه.. نظر إلى نفسه في المرآة الواقعة على واجهة أحد المحلات التجارية، ورأى شخصًا مختلفًا عما كان عليه من قبل، فقد كانت عينيه تعكس اليأس.. تساءل وهو ينظر إلى نفسه: **كيف يمكن للمرء أن يكون صادقًا مع نفسه بينما العالم يحيط به بهذا الشكل الخانق؟**

في تلك البرهة، أحس كما لو أن الأمل قد خذله، وواصل تساؤل مع نفسه: **وكيف يمكن أن يكون التغيير ممكنًا في عالم كهذا؟ هل يمكن للإنسان أن يستمر في السعي وراء السراب إلى الأبد؟**

فجأة شعر بشيء غريب لم يكن بمقدوره فهمه تمامًا، لكنه كان شعورًا بالخيانة، خيانة الأمل. كان الأمل هو الشيء الذي جعله يستمر، الذي جعله يعتقد أن هناك شيء أفضل في الأفق، لكنه الآن اكتشف أن هذا الأمل كان مجرد وهم.

ذهب إلى المقهى الذي اعتاد أن يرتدها كل صباح، حيث جلس في زاويته المعتادة.. الجميع حوله كانوا مشغولين في التحديق لشاشات هواتفهم، وكانوا جميعًا يبتسمون، رغم أنهم في أعماقهم يعرفون الحقيقة، وهي أن الأمل الذي يراهنون عليه لن يأتي أبدًا.

أخذ كوب القهوة بين يديه، وحينما رفعت عيناه نحو النادل، أحس بشيء غريب في قلبه، وتساءل مع نفسه كما العادة: **هل هو في نفس المكان الذي كان يشعر فيه بالراحة والأمل؟ أم أن هذا المكان قد أصبح الآن رمزًا لخيانة أعمق؟**

أجاب نفسه قائلاً: **"لقد خدعتني المدينة، وخدعتني الحياة، وخدعني الأمل."**

لكن في أعماقه كان يعلم أنه لا يمكن أن يستسلم، فحتى في عالم مليء بالخيانة، لا يزال هناك مكان للبحث عن الأمل مجددًا.. لكن هذه المرة، سيكون الأمل الذي ينشأ من داخل نفسه، وليس من الوعود الزائفة التي تقدمها المدينة.

الوجه الآخر

"نظرت في المرآة، لكن لم يكن هناك وجه يشبهني، فقط كانت هناك صورة، صورة لشخص لم أكن أعرفه، يقف على حافة بين الحياة والموت، بين الأمل والخوف."

في الزمان الذي كانت فيه الأوجاع تصاحب كل خطوة كان يخطوها سامر، كان يرى العالم من زاوية تختلف عن تلك التي اعتادها الجميع.. فقد كانت المدينة أمامه تتراقص مع بزوغ ضوء الفجر، ولكن في قلبه كان هناك شيء مختلف تمامًا.. تلك المدينة التي كانت تبدو في عينيه شبحًا يتنقل بين الأزقة، يخبئ وجهًا مظلمًا وراء واجهاته اللامعة.

في قلب تلك المدينة التي تخفي نفسها خلف واجهات متلألئة متوهجة تخطف الأبصار.. كان سامر يحاول أن يكتشف ما وراء السطح، وكان يعتقد أن هناك وجهًا آخر للمجتمع، ذلك الوجه الذي لا يُرى إلا لمن يبحث عن الحقيقة وراء القناع الذي يرتديه الجميع في هذه المسرحية العبثية.

تلك الوجوه التي تسير في الشوارع كل يوم، كانت تحمل في أعينها قصصًا غير مُروية، وجراحًا لا تُرى إلا من خلال النظرة العميقة.. كان سامر يسير بينهم كالغريب، يلاحظ التفاصيل التي يغفلها الآخرون.. كان يعلم أن هؤلاء الناس الذين يتنقلون بحركة آلية بين عملهم ومنزلهم وحياتهم اليومية، يخفون جزءًا من أنفسهم، جزءًا من حياتهم التي لا يسمحون لأحد أن يراها.

في إحدى الليالي الباردة، جلس بالمقهى المظلم في زاوية حيه الفقير، حيث اعتاد على الاختباء بين صفحات كتبه وأفكاره.. وبدأ يراقب الناس حوله، يراقب كيف يتحدثون، كيف يتحركون، كيف يبتسمون.. كل شيء كان يبدو طبيعيًا، كما لو أنهم يعيشون حياة سلسة وعادية.. لكن سامر وهو يراقبهم بتمعن، بدأ يشعر بأنهم جميعًا يعيشون في قيدٍ غير مرئي، يتنقلون في دوامة لا يمكنهم الهروب منها.

فجأة، اقترب منه شخص كان قد لاحظه طوال الأمسية في المقهى، كان وجهه مألوفًا ولكنه كان يحمل تعبيرًا غريبًا، كما لو أنه كان يخبئ شيئًا في أعماقه، جلس بجانب سامر دون أن يطلب إذنًا وأخذ نفسًا عميقًا. ثم قال الرجل، مشيرًا إلى الزبائن في المقهى: **"هل ترى تلك الوجوه؟ أتعلم ما الذي يخفيه كل واحد منهم؟"**

نظر سامر إلى الرجل، ثم عاد بصره إلى الوجوه التي كان الرجل يشير إليها، وقال له: **"أظن أنهم مثلنا يخفون وجوههم الحقيقية تحت طبقات من الزيف والابتسامات المفروضة."**

قال الرجل بنبرة هادئة: **"نعم، ولكنهم لا يخفون شيئًا فقط، بل يخفون أنفسهم، إنهم يختبئون من شيء أكبر من الحقيقة، يختبئون من مواجهة الو اقع فنحن جميعًا نختبئ وراء أقنعة محددة مسبقا."**

ما قاله الرجل الغريب أثار في عقل سامر زوبعة من الأسئلة، ووجه بعضها له: **لماذا يختبئ الجميع؟ ولماذا لا يستطيع أحد أن يكون نفسه بكل صدق؟ لماذا نحمل هذا العبء الكبير من الكذب والتمثيل والتظليل؟ هل حياتنا كلها مجرد محاكاة لمسرحية رديئة؟**

أجاب الرجل، وهو يبتسم ابتسامة غامضة: **"بالطبع، حياتنا كلها مسرحية، ونحن نلعب أدوارًا في مسرح الحياة، وعندما نتوقف عن تمثيل أدوارنا، نكتشف أننا لا نعرف من نحن حقًا."**

دقائق من الصمت مرت بينهما، وكانت كلمات الرجل تتردد في ذهن سامر، فقد كان يعرف أن هناك وجهًا آخر لهذا العالم، وجهًا آخر لنفسه، وأنه قد فقد الاتصال مع هذا الوجه، مع تلك الذات الحقيقية التي لم يعد يراها.

سأله سامر، وهو يشعر بشيء من القلق: **"لكن هل من الممكن أن نعيش بدون قناع؟"**

قال الرجل وهو يقف ليغادر المقهى: **"لا أحد يستطيع أن يعيش بدون قناع في هذا العالم، لكن على الأقل يجب أن نبحث عن اللحظات والأوقات التي يمكننا فيها أن نكون أنفسنا، لحظات نكون فيها حقيقيين، رغم أننا جميعًا نلعب أدوارًا، لكن بعض الأوقات، نكتشف في أعماقنا الوجه الآخر."**

وقبل أن يغادر، توقف لبرهة وقال:

"لا تخف من هذا الوجه الآخر فهو أنت، هي جوهرك الذي طالما تجاهلته."

ومع رحيله، أحس سامر بشيء عميق في قلبه، لقد كشف له ذلك الرجل الوجه الآخر لحياته، وتركه في صمتٍ رتيب، متأملًا في نفسه وفي العالم الذي يحيط به، ربما كان هذا الوجه الآخر هو الطريق الذي يجب أن يسلكها، الطريق الذي يجب أن يواجه فيه ذاته الحقيقية.

ظل الأمل

"الأمل ليس نجمًا بعيدًا، بل هو الظل الذي نعيش بصحبته، وهو ذلك الشعور الخفيف الذي يتسلل بين لحظات السكون، يقاوم الزمان الذي يضغط علينا، لكنه لا يتوقف عن الوجود."

كان اليوم مثل أي يوم آخر في المدينة، حيث كان الجميع يتحركون بسرعة كما لو أن الحياة تمضي عبرهم دون أن تترك لهم وقتًا للتفكير.. لكن سامر كان مختلفًا اليوم، ففي أعماقه كان هناك شيء غير مرئي، شيء يربطه بالحياة بطريقة غريبة، كما لو أنه يلمح خيطًا رفيعًا من الضوء في نفق مظلم، هذا الخيط كان هو ظل الأمل، ذلك الأمل الذي لا يموت مهما طال الزمن.

بينما كان يمشي في الشارع المزدحم، حيث تعج الأرصفة بالوجوه المتعجلة والعيون التي تختبئ وراء شاشات هواتفها، شعر بأن الحياة حوله أصبحت مملة وفارغة من المعنى، الجميع يتبعون الروتين، يتنقلون بين أعمالهم وأماكنهم، لكن لا أحد يتوقف ليتساءل عن السبب أو الهدف.

في أحد الزوايا، كان هناك حائط قديم مهدم، تتساقط منه أوراق الأشجار الصفراء، وتلتف حوله بعض النباتات الجافة.. كان سامر قد مر من هناك مرارًا، لكن اليوم كان يحس بشيء مختلف، توقف لبرهة أمام الحائط ثم نظر إلى السماء التي كانت ملبدة بالغيوم، وكأنها تُخبئ شيئًا ما.

همس لنفسه، وهو يستحضر في ذهنه تلك الأفكار التي كانت تراوده طوال الأيام الماضية: **هل الأمل فقط خيال وسراب؟ هل الأمل هو ما يجعلنا نتحمل هذا العالم المليء بالآلام والظلم؟ أم أنه مجرد ظل خفيف على وجوهنا، سراب لا يُمسك؟**

بينما هو غارق في بحر هذه التأملات، شعر بشيء يلمس قلبه، كان هذا الشعور كنبضة خفيفة لم تكن كالأمل المعتاد، بل كانت شيئًا أعمق، شيئًا يُشعره بأن هناك ما يستحق الحياة، حتى وإن كان مستترًا وراء الظلال.

ثم سمع صوتًا، كان صوت امرأة مسنّة جالسة على مقعد خشبي مهدم قرب الحائط.. كانت تبتسم له رغم تقاسيم وجهها التي تحمل تجاعيد الزمن وتعب الأيام، وقالت له بصوت هادئ: **"الأمل ليس دائمًا في الضوء، بل في الظل أحيانًا."**

اقترب سامر منها، محاولًا فهم مغزى كلماتها، سألها وهو يحس بشيء من الارتباك: **"كيف يمكن أن يكون الأمل في الظل؟."**

أجابته المرأة، وهي تنظر إلى السماء الملبدة بالغيوم:

"الظل هو المكان الذي نختبئ فيه من حرارة الشمس، ولكنه أيضًا المكان الذي يعطينا الراحة والسكينة في أوقات الضياع.. فالحياة يا بني ليست دائمًا الظهور وسط الأضواء الساطعة، بل هي الصبر في الظلال! فالأمل موجود في الصبر، في الاستمرار رغم كل شيء."

ابتسمت المرأة ابتسامة خفيفة، وكأنها تعرف شيئًا لا يعرفه سامر بعد، وقالت: **"الأمل لا يموت، بل يظل يتسلل إلى قلوبنا حتى في أقسى فترات حياتنا.. فهو مثل الظل، لا نراه دائمًا، لكنه موجود هناك، يرافقنا، يحمينا من الاندثار."**

نظر سامر إلى السماء مجددًا، ووجد نفسه يعود إلى تلك الفكرة التي كانت تلاحقه، الأمل على الرغم من خفوت صوته أحيانًا، هو مثل ظل لا يمكن أن ينقضِ.. ربما كان الأمل في الحياة لا يكمن في الوصول إلى هدف بعيد، بل في الاستمرار في المسير حتى عندما لا يكون هناك ضوء واضح.

كان يحس بشيء قد تغير في داخله، وأحس بأن الأمل لا يرتبط فقط بتحقيق الأحلام، بل بتقبل الرحلة نفسها، بكل ما فيها من تحديات وظلال والظلام، فلا يهم كم يطول الطريق أو كم هو مظلم في بعض الأحيان. فإذا كان الظل موجودًا، فإن هناك دائمًا أملًا يستمر في التسلل عبره.

في تلك اللحظة، فهم أن ظل الأمل ليس مجرد فكرة بعيدة أو سراب، بل هو جزء من الحياة نفسها، يتبعنا أينما ذهبنا، يحمينا من السقوط في الفراغ، ويشجعنا على الاستمرار.

وتذكر دائماً: **لا يأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس**.

خاتمة لا بد منها

في النهاية، نجد أنفسنا أمام حقيقة غير مريحة، لكنها بلا شك أساسية: الأمل ليس شيئًا يمكننا الإمساك به في لحظة، بل هو خيط رفيع يمتد عبر الأوقات والأماكن، يختبئ في الظلال كما لو كان يخشى أن يواجه ضوء الحقيقة مباشرة.. ففي عالم يطغى عليه الضجيج والظلام والظلم، يصبح الأمل غريبًا، شبحًا يتسلل عبر النوافذ المغلقة ويختبئ في الأماكن التي لا يراها الآخرون.

لقد تعلمنا أن الأمل ليس دائمًا في الأفق البعيد، ولا في النجاحات الباهرة بل في الصبر، في التمسك بالأمل في ظل الظروف الصعبة، في التمسك بإنسانيتنا رغم القسوة التي قد تطالنا. هذا الأمل يكمن في اللحظات الصغيرة والبسيطة، في الاستمرار بالرغم من كل شيء، وفي الاستجابة للظلام بطريقة مغايرة. فنحن نعيش في عالم مليء بالمآسي والأحزان والظلال والظلام، لكن كل ظل هو علامة على وجود الضوء، حتى وإن كان بعيدًا.

قد لا نجد في النهاية إجابة قاطعة لما نبحث عنه، لكننا على الأقل تعلمنا أن الأمل ليس في نهاية الطريق، بل في الاستمرار في السير على الرغم من صعوبة المسار، ولا يمكننا أن نترك حياتنا في انتظار لحظة معينة أو في البحث عن شيء بعيد، بل يجب علينا أن نجد الأمل في كل لحظة، في كل خطوة نخطوها نحو المستقبل المجهول.

ظل الأمل هو ما يبقينا على قيد الحياة في عالم مليء بالأسئلة، والمجهول، والأوجاع، والنكبات. في النهاية نكتشف أن الأمل ليس الهدف بحد ذاته، بل هو الرحلة نفسها، الرحلة التي لا تنتهي أبدًا طالما كنا مستعدين لمواصلة السير رغم الظلام.